العرب
الأحد 2021/08/01
السنة 44 العدد 12135

إذا كان المواطنون قليلي السفر والتنقل فهذا مؤشر خطر

ميلاد الخالدي

مررت لنا المناهج التربوية في تونس أن تونس هي مجرد بلد صغير جدا بمثابة نقطة في خارطة العالم بالكاد ترى. هي رسالة لا واعية أنك ضئيل الحجم أو غير موجود وكلما كانت المساحة كبيرة كان الانبهار أسرع والفضول أعمق وأشرس لمعرفتها.

التصغير من حجم مساحة البلد لتظهر سطوة النظام وهيمنته وهذا يساعد الأنظمة الشمولية لأن الظهور والبروز هما من شيم الأنظمة الديمقراطية المنفتحة التي لا يزعجها البروز لأنه ليس لديها صندوق أسود تخاف عليه. فسياسة التخفي والتواري هي سياسة الإنسان المذنب في حق نفسه أو في حق غيره، وهو نفس الحال الذي ينطبق على الأنظمة المستبدة حتى وإن ادعت انفتاحها فهي تظل مغلقة من الداخل في إطار خداع المواطن واستغبائه.

احتقار المواطن العربي لأناه وذاته نابع من عاملين: ماذا نقول لذواتنا وماذا نلقنها عبر التربية والخطاب السياسي والإعلامي؟

أسلوب التقزيم هو أسلوب يلجأ إليه القوي إزاء الضعيف، المهيمِن على المهيمَن عليه. هناك من يقر أنه حتى رسم خارطة العالم والقارات يدعو للريبة والتساؤل، وهو بالفعل يدعو إلى ذلك حيث أن النظرة التاريخية والاستعمارية والعنصرية جعلت من قارة أفريقيا قارة ضعيفة ومستنزفة ومفعول فيها. يعني بلغة أوضح أنا هنا من سيرسم حدودك، ومن سيحدد إمكاناتك، أقزم حجمك وأصغر مساحتك رغم أن مساحة قارة أفريقيا هي تساوي مساحة أوروبا والصين وأميركا مجتمعة. مع ذلك تجدها على الخرائط صغيرة الحجم وما زال الأمر كذلك.

وإذا اتخذنا رمزية الفضاء والأجرام السماوية، فإن نظرية القزم الأسود الذي كان في الأصل نجما أبيض خبا نوره وتقلصت حرارته إلى أن وصل به الحال من الهوان والهزال. فالقارة الأفريقية ليست بالقزم الأسود حتى وإن كانت هكذا فالسبب بالأساس يعود إلى الأنظمة التي تدير دول القارة وأفرادها. إذا لم تقف الأنظمة لدولها وترفع من حالها إلى مناص القارات الأخرى كقارات منتجة ومنافسة ومهيمنة، فستستمر نظرية القزم الأسود حيال النجم الأبيض.

تضخيم القطر، تضخيم الأنا.

فبلد كهولندا لا تتجاوز مساحته مساحة محافظة من محافظات الجزائر أو السعودية أو السودان، مع ذلك استطاعت بداية من القرن السادس عشر من تحقيق طفرة ثقافية وفنية ونهضة اجتماعية واقتصادية مكنتها رغم ضآلة حجمها من بسط نفوذها وقوتها إلى أن وصل بها الأمر لاحتلال أجزاء من إندونيسيا، ودول أفريقية وحتى ولايات أميركية.

يعني لو ظلت هولندا أو البرتغال أو إنجلترا تنظر إلى مساحتها وحجمها بعين الصغر والحقارة لما تمكنت هذه الدول من تحقيق ما حققته في الداخل والخارج. وبالتالي سينعكس ذلك حتما على صورة الفرد لذاته داخل دولته وداخل رقعته التي تجاوزها ليس من باب الوهم أو من باب القزم الأبيض، وإنما من باب "إيقاظ العملاق الذي يقبع داخلنا" وإن كنا قد استعرنا مقولة المتحدث التحفيزي الأميركي أنتوني روبنز في هذا السياق.

ضخامة القطر في المقابل لا تعني ضخامة الدولة ولا ضخامة الفرد الذي يقبع تحتها، فالمساحات الهائلة للعديد من الدول العربية لا تعكس أنا ضخمة ولا حتى عقلا واعيا هائلا يخزن موروث القفز والصعود على القمم. احتقار المواطن العربي لأناه وذاته نابع من عاملين أساسين: ماذا نقول لذواتنا وماذا نلقن ذواتنا؟ وهذان يرجع النصيب الأكبر فيهما إلى التربية والخطاب السياسي والإعلامي.

إذا كان تعريف الدولة في "لسان العرب" لابن منظور يعني "الانتقال من حال إلى حال" فهذا المفهوم لم يجد رواجا عند النظام أو لنقل وقع فهمه وتأويله على وجه الخطأ والتسويق له عكس ما يوحي ويشير إليه. رغم أنهم ينتمون لنظام واحد واتحاد سوفييتي واحد فإن من يعيش في جورجيا لا يعرف ولن يعرف عن تفاصيل حياة من يعيش في رومانيا. تقوقع الدولة جعل المواطنين يتقوقعون على أنفسهم إلى درجة أن من يسافر كما لو أنه سيشكل حزبا معارضا أو صحيفة مناوئة للنظام.

المجال أو الفضاء العمومي الذي تحدث عنه الفيلسوف الألماني يورغان هبرماس، فبقدر ما يكون الفضاء العمومي حاضنا للنقاش وحاضرا لتحقيق مصلحة تواصلية مشتركة، ويرضي طموح طبقات مجتمعية وسياسية فهو يبقى حبيس البرجوازي (هناء علالي ومصطفى كيحل، الفضاء العمومي ودوره في تفعيل الفكر التواصلي عند هابرماس، التواصل في العلوم الإنسانية والاجتماعية، عدد خمسين يونيو 2017، ص 197)، والعقلي وليس الوجداني لاسيما إذا اعتبرنا أن التنقل في المجال هو كسر حدود وضعها عقل الدولة ورسخها أفراد يتداولون مسائل ليست بالضرورة تهم كيانهم كوجدان فضولي مكاني متجاوز.

يقول عبدالله العروي في كتابه "مفهوم الدولة"، "الدولة الكاملة، المعقولة، هي التي تعترف بحرية الذات وتعمل على غمس الذات في المبدأ العام التي تترك الفرد يفعل ما يريد في الوقت الذي يطبق فيه تلقائيا القانون العام"، بمعنى آخر وفي مفهومي المجرد يعني أن حرية الذات وحقها في المشاركة في الحياة السياسية والاجتماعية والثقافية تبقى حرية مبتورة ومشلولة إذا لم ترافقها حرية التنقل والعبور. والقوانين بمفردها لا تصنع الحرية فكل الدول الشمولية تنص في دساتيرها على حرية السفر والتنقل لكن الحقيقة عكس ذلك. فالنظام يسجل نقاطا حين تقام حواجز بلورية حول المكان أو المجال الحيوي باعتبار أن نظام الدولة يحتكر المكان والمجال الحيوي وكل من يتجاوزه كأنه تجاوز حدود الدولة.

المجال الحيوي في الدولة النازية الهتلرية هو حكر على النظام فقط، وكل توسع هو يخدم الدولة بقدر ما هو يخدم الفرد. فكل مواطن يتجاوز الجدار الفاصل بين ألمانيا الشرقية والغربية ويهرب تجاه المعسكر الغربي يقتل لأنه أراد أن يكتشف العالم الآخر وما يمكن أن يدور خلف الأسلاك الشائكة رغم أنه يعي جيدا أنه ذاهب من منطلق فضوله أو إحساسه بالدكتاتورية إلى جزء يمثله أو كان ينتمي إليه بطريقة أو بأخرى لذا فالالتحاق بالمجال هو رحلة انتماء بالضرورة أو يمكن أن يكون بحثا صرفا عن الأمان والطمأنينة. يعني من يطلب أو يرغب في السفر هو يطلب أو يرغب في حرية الوجدان، ليس بالمفهوم الهيغلي إنما في السماح بتحسس أماكن السلم والطمأنينة والاستئناس بالفضاءات المختارة والممكنة.

الأنا الدولية (نسبة إلى الدولة) في عملية احتواء ثم مصادرة الأنا المتشكلة، حيث تدرب الذات على الانحسار ومنعها من الانسياب والتمدد داخل الرقعة أو خارجها من قبيل كوريا الشمالية وكوبا وليبيا، ماعدا المحاولات المحتشمة لهذين الأخيرين في الآونة الأخيرة.

إذا سافر مسؤولو الدولة إلى مكان ما، إلى محافظة ما، إلى بلد ما فهذا يعني أن المواطنين بصفة لاواعية قد أدوا تجربة السفر، لذا فـBig Brother يعيش بين المواطنين في وجدانهم ويحقق آمالهم، يصادر حقهم في التحرك والتنقل والسفر في المجال، لا يسمح للمواطن أن يتجرأ ويحلم خارج أرضه وخارج المجال الذي نشأ فيه.

نجحت السلطة في بث الرعب في الفرد والحؤول دون التقدم لمعرفة أرضه وبلده وجغرافيته. قليل من متساكني طرابلس من يعرف أو يكون مطلعا على مناطق مثل الجوف أو الكفرة في أقصى الجنوب الليبي. كما هو الحال بالنسبة إلى أهالي طبرق في علاقتهم بغدامس أو غات. الخوف من المجال أو السفر في المجال أو سبر غور المجال، لأن النظام يعتبر أن فسح المجال لمواطنيه بالسفر هو تعد على كيان النظام والمشاركة فيه. لذا وجب حسر المجال الذي يتحرك فيه الفرد ليسهل مراقبته وبالتالي التحكم فيه.

كلما كانت الأنظمة دكتاتورية كان المواطنون قليلي السفر والتنقل لأنه وقع تمرير صورة غير واعية أن السفر في المجال هو جرم كبير فيعدلوا بالتالي عن ذلك دون وجود موجب لإخبارهم بذلك. هذه قوة لا مرئية يتباهى بها النظام الدكتاتوري في تونس في عهد بن علي حيث يظن أهل الشمال أن أهل الجنوب مازالوا يقطنون الخيام ويمتطون الجمال ويعبرون كثبان الرمال للذهاب إلى المدرسة ولقضاء حاجياتهم. هي سياسة نظام أو سياسة "دولة".

سياسة أن لا تعرف بلدك حق المعرفة هي سياسة ممنهجة حيث اكتشفنا إبان الرابع عشر من يناير 2011 في تونس على شاشات القنوات المحلية بالوضع الكارثي الذي تعيشه المناطق الحدودية التي حسبناها من وطأة الصدمة واقعة في دولة مجاورة ولا تنتمي حتى للتراب التونسي.

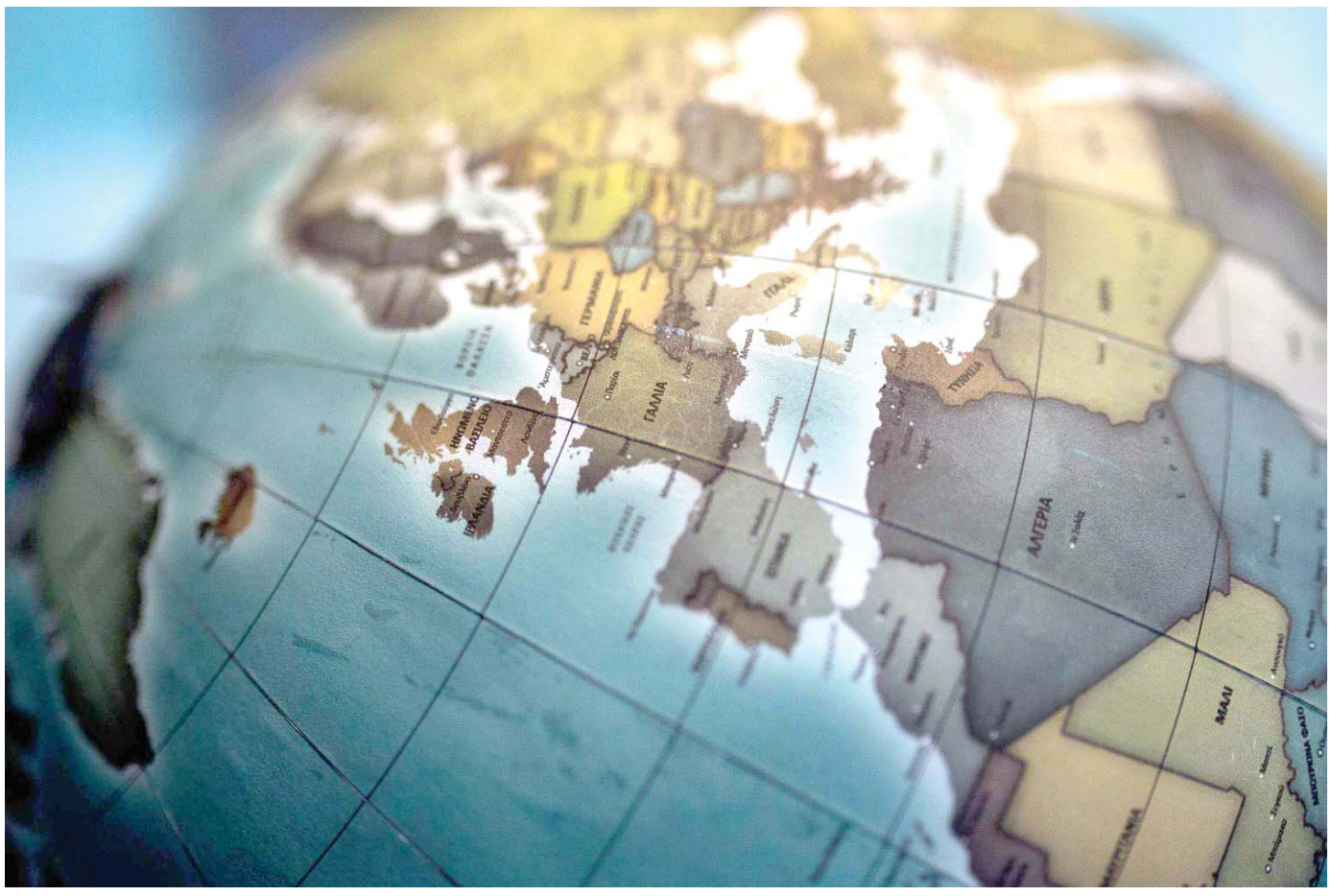

خارطة العالم من صنع الأقوى

الإنساني قبل الديني.. آن الأوان أن يعترف الإنسان باسمه كاملا

عبدالرحمن الآنسي
كاتب يمني

من يتنقل بين البلدان ويتعرف على حضارات مختلفة وأجناس متعددة يعرف حينها أمرًا بالغ الأهمية، ألا وهو ضرورة تطبيق مبدأ الإنسانية في هذا العالم المختلف والواسع.

في إحدى اجتماعات الجامعة ألقيت كلمة أمام مجموعة من أساتذة الجامعة وطلابها، قلت فيها "إن العالم يفتقد إلى مبدأ الإنسانية، العالم ليس إنسانيا البتة، لهذا السبب نرى مجازر كل يوم، والصحف تضجّ بأخبار العنصرية والعرقية، فلا يمر يوم واحد دون أن نسمع برجل أبيض اعتدى على أسود، وشخص من تلك الديانة يهين آخر من ديانة أخرى، وهلم جرا".

ما إن انتهيت من الكلمة حتى أتاني صديقي المسلم يخبرني أني أخطأت عندما قلت إن العالم يحتاج إلى تطبيق مبدأ الإنسانية، فكان علي أن أقول "إن هذا العالم يحتاج إلى تطبيق الإسلام" وبدأ يحدثني عن الإسلام الذي يقدس الإنسانية أكثر من أي نظام آخر في هذا العالم، وبدأ يسرد قصص الأجداد، وكيف كانوا يطبقون الإسلام على الجميع.

لم أرد أن أفسد عليه نشوته في الحديث، فتركته حتى انتهى ثم قلت "هذا هو التمييز العنصري الذي يعاني منه العالم والذي قصدته في كلمتي، الجميع يريد جماعته أن تحكم ويرى أنه على حق، فالأبيض لا يطيق رؤية السود لأن له الأفضلية، والمسلمون لا يطيقون الأنظمة العلمانية والمتحررة لأنها ترى أنها تمثل الدين الصحيح، وتلك الديانة تريد أن تحكم لأن لها الحق وهكذا، أما يليق بالإنسان أن يطبق مبدأ أُقترن باسمه؟ أما آن الأوان أن يعترف الإنسان باسمه كاملًا لا مُجزأً"؟

حاول صديقي الدفاع عن الإسلام لكني ما أردت أن نستمر في النقاش؛ لأني أحسست أنه يكرر الحديث نفسه ويعيد الأدلة نفسها، فاضطررت لتغيير مجرى النقاش، وذهبنا.

في الخامس والعشرين من مايو استيقظنا على حادثة مقتل جورج فلويد، ظللنا نناقش هذه القضية في العمل طيلة اليوم، الجميع كان يتساءل بحزن: ما هذا الإجرام غير الإنساني الذي أقدم عليه "ديريك تشوفين" بقتله جورج فلويد بتلك الطريقة المؤلمة؟

في الحقيقة تلك الطريقة ليست جديدة على هذا العالم، بل عادية جدا؛ وسبب الانفجار الثوري الذي رأيناه في الولايات المتحدة الأميركية بعد مقتل فلويد ليس إلا نتيجة لتسليط أحدهم للأضواء على جريمة فلويد ونقلها للشارع، سواءً كان ذلك بقصد أو مصادفة، ولو فكّرنا في هذه الحادثة ألا يحق لنا أن نتساءل: من لأولئك الذين لا تصل إليهم الكاميرات حتى يثور الناس لأجلهم عندما يضطهدون؟ من لأولئك الذين يُقتلون كل يوم بأبشع الطرق، وتطبق عليهم أسوأ أنواع المضايقات العنصرية في هذا العالم؟ ألا يحق لكل إنسان في هذا العالم أن يعيش كما يحلو له دون أن يتضايق الآخرون من لون جلده أو ديانته أو عرقه؟ هل أصبح لون الجلد عيبًا، والديانة التي نعتنقها بطاقة شخصية لتحدد للطرف الآخر، هل يتصرف معنا بهذه الطريقة أو بتلك؟ إنه لعيبٌ في حق الإنسان أن يصل إلى هذه الدرجة من الدناءة في التصرف مع ابن جلده.

ليس هناك أفضل من مبدأ الإنسانية البتة فالديانات وإن أظهرت تسامحها إلا أن التمييز العنصري حاضر فيها

قبل سنتين تقريبًا حضرت الفيلم الأميركي «Get out»، والذي فيه من الرعب العنصري ما يكفي لفهمنا كيف يتعامل العنصريون في هذا العالم مع البقية، حيث إن الفيلم يحكي قصة الفتى الأسمر «كريس» وهو يزور منزل عائلة حبيبته البيضاء «روز». يوجد هذا البيت منعزلًا وسط الغابات، فبعد أن طمأنته حبيبته أن عائلته ليست عنصرية يقرر زيارة العائلة، ليكتشف في نهاية المطاف أن العائلة تدّعي أنها ليست عنصرية لغرض جلب السود فقط واستخدام التنويم المغناطيسي معهم ليرضخوا لأوامرهم وسلبهم أعضاءهم البشرية عند الحاجة إلى ذلك. هنا العائلة تحب السود في الظاهر لكنها تبطن لهم الكره والموت، والدليل أنها تستعبدهم وتنتشل منهم أعضاءهم البشرية التي هي أغلى ما لديهم. وهنا يكمن خطورة تجاهل مبدأ الإنسانية.

أنيس منصور في كتابة "حول العالم في 200 يوم"، والذي أظهر فيه تعدد الملل والديانات والأجناس البشرية، كان هذا تصريحًا منه من خلال المواقف التي عاشها في الهند بضرورة تطبيق مبدأ الإنسانية قبل أيّ دين أو ملة أو عرق.

لقد كان محقًا، فنحن نعيش في عالم احتضن أكثر من عشرة آلاف ديانة على مرّ التاريخ، 150 ديانة بلغ عدد المؤمنين بكل منها أكثر من مليون فرد، وقد رصدت الإحصائيات حوالي 4200 ديانة وعقيدة، ما بين ملل وفرق وطوائف وكنائس ومذاهب وعشائر، فكيف لعرق واحد أو ديانة واحدة أن ترغم كل هذا الكم الهائل من الاختلاف على اتباع دين واحد أو ملة واحدة؟ مستحيل. إذن لن نجد مبدأ أفضل من مبدأ الإنسانية البتة، فالجميع وإن أظهروا تسامحهم إلا أن التمييز العنصري سيظل موجودًا وحاضرًا.

لو تعمقنا أكثر لوجدنا أن التمييز العنصري موجود حتى داخل الديانة الواحدة والعرق الواحد، ففي الإسلام يرون من لهم صلة بعائلة النبوة أن لهم الحق في البلاد والعباد أكثر من غيرهم، فهم السادة والبقية أناس عاديون، أو ربما يعتبرونهم عبيدًا لهم، فهذا لا يفرق بالنسبة إليهم. في المسيحية كذلك البروتستانت يرون أنهم على الطريق الصحيح الذي لا بد للجميع سلكه، بينما الكاثوليك يرون أنفسهم أنهم على الطريق المستقيم أيضًا، ولا تنتهي الكثير من الأمور بالاعتقاد فقط، فحرب الثلاثين عامًا التي صار ضحيتها أكثر من 8 ملايين آدمي خير دليل على أن العنصرية لن تزول من هذا العالم ما لم يطبّق مبدأ الإنسانية.

إذن فنحن بحاجة ماسّة إلى تطبيق الإنسانية في هذا العالم وتقديمها على ديننا وعرقنا، ولا بد أن نعرف أنه لكل إنسان في هذا العالم الحرية في اتباع ما يريد، لكن ليس له الحق أن يكفر بالإنسانية؛ لأن العالم مليء بكل ما هو مختلف ومتضاد، وفيه من الأعراق والأجناس والملل والعشائر ما يجبرنا على قول "لا يمكن لدين واحد أن يحكم كل هذا، وليس لنا خيار سوى تطبيق مبدأ الإنسانية". لماذا نخاف من تطبيق هذا المبدأ الرائع؟ أنخاف على الدين الذي نتبعه أم على الملة التي ننتسب إليها؟ لم الخوف ما دامت الإنسانية ستحفظ لنا ديننا وكرامتنا ليعيش الواحد منا إنسانًا فحسب يتبادل الحب مع الآخرين كونهم أناسا أيضا.

ص10 ومقال مخلص الصغير في ص12
ينشران كاملين على الموقع الإلكتروني بالاتفاق مع مجلة «الجديد» الثقافية

فيلم «Get out» يجسد غياب الإنسانية